الجزيرة العربية قبل الاسلام

نشـأة مكـة:

هاجر إبراهيم (عليه السلام) من العراق إلى الشام، ثم من الشام إلى مصر. وكان يحمل معه في ترحاله هذا رسالة التوحيد[٣٢]. وكانت ترافقه زوجته سارة. وكانت امرأة جميلة. وكان من عادة ملك مصر أن يستأثر لنفسه بكـل امرأة جميلة. وشاء الله أن يصرفه عن سارة. وتنقلب منه بجارية لتخدمها، وهي هاجر أم إسماعيل (عليه السلام)[٣٣].

ولما كانت سارة عقيما، وطعن إبراهيم (عليه السلام) في السن، وابيض شعره، رأت أن تهب له الجارية هاجر ليتزوجها، لعل الله يرزقه منها ذرية صالحة. وشاء الله أن تلد له هاجر ابنها الأول، فسماه إسماعيل[٣٤].

واشتدت الغيرة بسارة عندما ولدت هاجر إسماعيل، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء[٣٥]. فاتخذت هاجر منطقا له ذيل، فشدت به وسطها، وهربت مع زوجها، وهي تجر ذيلها لتخفي أثرها عن سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند مكان البيت الحرام، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد[٣٦]، وليس بها ماء. ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل راجعا، فتبعته

---

(٣٢) انظر الآية ١٢٠ من النحل: ﴿إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين﴾. وقصته مع الأصنام ومشركي زمانه مشهورة، حكاها القرآن في عدة سور، مثل: الأنعام (٧٤ - ٨٣)، والأنبياء (٥١ - ٧٠)، ومريم (٤٦ - ٤٨) والبقرة (٢٥٨ - ٢٦٠) والتوبة (٢٦). أما قصته مع التوحيد في مكة فانظرها في سورة إبراهيم، مثل الآيات: ٣٧، ٩٩-١١١، وفي الصافات: ١٠٢.

(٣٣) انظر: البخاري / الفتح (١٣/ ١٣٤ - ١٣٥/ ح ٣٣٥٨). وانظر تفاصيل قصتها بهذا الصدد عند ابن حجر في شرحه لهذا الحديث، ص ص ١٣٤ - ١٣٧.

(٣٤) انظر الخبر من رواية ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٢، بإسناد ضعيف، والأزرقي: أخبار مكة، (١/ ٥٤). وإسناد الأزرقي ضعيف.

(٣٥) ابن حجر: الفتح (١٣/ ١٤١/ شرح الحديث ٣٣٦٤).

(٣٦) روى الأزرقي (أخبار مكة ١/ ٥٤)، بإسناد ضعيف، أن العماليق كانت تسكن خارجها.

هاجر، فقالت: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟» فقالت له ذلك مرارا، وهو لا يلتفت إليها، فقالت له: «آلله الـذي أمـرك بهذا؟»، «قال: نعم»، قالت: «إذن لا يضيعنا». ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرى، استقبل بوجهه مكان البيت، ثم دعا قائلا: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾، حتى بلغ ﴿يشكرون﴾[٣٧].

لم يلبث أن نفد ما عند هاجر من ماء، فعطشت هي وابنها، فكرهت أن تنظر إلى ابنها وهو يتلوى من العطش، فانطلقت حتى قامت على أقرب جبل منها، وهو الصفا، ثم استقبلت الوادي لتنظر، هل ترى أحدا. فلما لم تر أحدا هبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسـان المجهـود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا، فلم تر أحدا. ففعلت ذلك سبع مرات ـ وذلك سعي الناس بينهما كما قال الرسول ﷺ. وفي نهاية المرة السابعة جاءها الملك جبريل وأخذ يبحث بعقبه أو بجناحه عند موضع زمزم، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، ثم تغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف منه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم»، أو قال: «لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينا معيناً[٣٨]. فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله».

وبينما هي على هذا الحال، مر بهم أهل بيت من قبيلة جرهم اليمانية القحطانية. وعندما وجدوا الماء، استأذنوها في النزول عندها، فأذنت لهم بشرط أن لا يكون لهم حق في الماء، فوافقوا، وأرسلوا إلى بقية أهليهم فنزلوا معهم. وشب الغلام بينهم، تعلم اللغة العربية منهم وأعجبهم حين شب،

---

(٣٧) انظر الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

(٣٨) وفي رواية للبخاري أنه قال: «يرحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكان زمزم عينا معينا». انظر: الفتح (١٣/ ١٤٠/ ح ٣٣٦٢.

فلما كبر زوجوه امرأة منهم[٣٩].

وعندما ماتت هاجر جاء إبراهيم، ولم يجد حينها ولده إسماعيل بالبيت، فأخبرته زوجه انه خرج في حاجتهم. وعندما سألها عن عيشهم، شكت إليه مر الشكوى مما يلاقيانه من شدة، فأوصاها أن تقرئه السلام وتقول له بأن يغير عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل أخبرته زوجته بالذي حدث، فعرف من وصفها أنه أبوه، وفهم الوصية، وفهم أن العتبة تعني زوجته، فطلقها، وتزوج امرأة أخرى. وبعد فترة من الزمان عاد إبراهيم مرة أخرى فلم يجد إسماعيل بالمنزل، وسأل زوجه عن عيشهم، فحمدت الله وأثنت عليه بما وسع عليهم في الرزق، فأوصاها بأن تقرئه السلام وتقول له أن يثبت عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل وأخبر بما حدث، عرف أباه وفهم وصيته، فأمسك عليه زوجه.

ثم غاب إبراهيم ما شاء الله، ثم عاد، ووجد ابنه من وراء زمزم يصلح نبلا له تحت دوحة عظيمة قريبة من زمزم. فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد مع الولد. فطلب إبراهيم من ابنه أن يعينه بما أمره الله به، وهو بناء الكعبة على مكان مرتفع قرب زمزم. فكان إبراهيم يبني ويأتيه إسماعيل بالحجارة، حتى ارتفع البناء، فجاءه بحجر المقام فوضعه له فقام عليه. وكانا يقولان وهما يبنيان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾[٤٠]،[٤١].

ليست هذه هي المرة الأولى التي يعين فيها إسماعيل أباه على طاعة الله وتنفيذ أمره. فقد ثبت أن إبراهيم عاد إلى مكه عندما شب إسماعيل، وقد أوحى الله إليه مناما أن يذبحه قربانا لله تعالى. فاستشار إبراهيم ابنه إسماعيل في ذلك قائلا: «يا بني إني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى» فأجاب إسماعيل قائلا: «... يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين»[٤٢].

---

(٣٩) وقيل إن زوجته الأولى كانت من العمالق. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (١/٢٠٩).
(٤٠) البقرة: ١٢٧.
(٤١) روى هذه القصة البخاري / الفتح (١٣/١٤١ - ١٥٢/ ح ٣٣٦٤ وح ٣٣٦٥.
(٤٢) انظر هذه الآيات في قصة الذبح والفداء في سورة: الصافات: ١٠٢ - ١٠٧.

وخرج به إلى منى لتنفيذ أمر ربه. ولما تله للجبين والسكين بيده، ناداه ربه: ﴿... ان يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا...﴾ وفداه الله بذبح عظيم ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾[٤٣]، أي بكبش أملح كبير، فترك الولد وذبح الكبش. وفاز الوالد والولد برضا الله تعالى[٤٤].

وعندما فرغ إسماعيل وإبراهيم من بناء البيت، أمر الله نبيه إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[٤٥]، فقيل صعد (عليه السلام) جبل أبي قبيس أو الحِجر أو الصفا، ونادى باسم الله تعالى قائلا: «أيها الناس! إن ربكم بنى لكم بيتا فحجوه». فأسمع الله نداءه كل مخلوق، ومن كتب الله انه يحج إلى يوم القيامة، فلبى قائلا: «لبيك اللهم لبيك»[٤٦].

ودعا إبراهيم وإسماعيل ربهما بما حكاه عنهما القرآن الكريم: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾[٤٧]. قال الطبري[٤٨]: «وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا محمد ﷺ يقول عنها: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى...».

وعاش إسماعيل بجوار البيت الحرام مع أصهاره جرهم إلى أن بعثه الله رسولا إليهم وإلى كافة من بالحجاز من قبيلة العماليق وأهل اليمن[٤٩]. قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا

---

(٤٣) انظر هذه الآيات في قصة الذبح والفداء في سورة: الصافات: ١٠٢ - ١٠٧.

(٤٤) وانظر تفسير الآيات في كتب التفسير، مثل زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٧١ - ٧٨)؛ ابن كثير: (٧/ ٢٢ - ٣٠).

(٤٥) الحج: ٢٧.

(٤٦) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٠) وهو مضمون ماروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن جبير وغير واحد من السلف، وأوردها ابن جرير (١٧/ ١٠٦ - ١٠٧) وابن أبي حاتم مطولة كما قال ابن كثير.

(٤٧) البقرة: ١٢٩. وانظر تفسيرها عند الطبري (٣/ ٨٢ - ٨٨/ شاكر).

(٤٨) التفسير (٣/ ٨٢/ شاكر) وقد رواه أحمد في المسند (٤/ ١٢٧ - ١٢٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٦ - ١٧) بمثل إسناد أحمد، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. قلت: «إسناده حسن لأنه من طريق ابن إسحاق، وهو مدلس وقد صرح بالتحديث».

(٤٩) ابن كثير: البداية (١/ ٢٠٩)، بدون إسناد، فهو ضعيف.

نبيا﴾[٥٠] وأنجب اثني عشر ولدا ذكرا. وقد سماهم محمد بن إسحاق، ونقل ذلك عنه ابن كثير[٥١]، وأولهما نابت وقيذار. ونابت هو الذي اختير لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل. واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان لظروف غامضة غير معروفة. وكان عدد الآباء ما بين نابت وعدنان يقدر بستة آباء، وقد عاشوا جميعا بالحرم المكي. ومع هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة. وقد جزم الرسول ﷺ بنسبه إلى عدنان، أما أجداده ما بين عدنان وإسماعيل فمختلف فيهم[٥٢].

وعندما مات إسماعيل دفن مع أمه في الحجر، وكان عمره مائة وسبعا وثلاثين سنة. وينتسب كل عرب الحجاز إلى ولديه نابت وقيذار[٥٣].

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن عهد إبراهيم (عليه السلام) كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد[٥٤].

تعدد بناء الكعبة

المرة الأولى: عمارة الملائكة، كما روى الأزرقي[٥٥].

المرة الثانية: عمارة آدم (عليه السلام)، كما روى البيهقي[٥٦] وغيره[٥٧].

المرة الثالثة: عمارة أولاد آدم (عليه السلام)، كما روى الأزرقي[٥٨] وغيره[٥٩]،

---

(٥٠) مريم: ٥٤. وانظر كذلك في أمر نبوته ـ مثلا ـ: البقرة: ١٣٦. النساء: ١٦٣.

(٥١) البداية (١/٢٠٨) ـ بدون إسناد. فهو إذن خبر ضعيف.

(٥٢) انظر الأقوال في هذا عند ابن عساكر: تاريخ دمشق، قسم السيرة، ص ص ٣٦ ـ ٥٣، الذهبي: السيرة النبوية، ص ص ١٨ ـ ٢٢، وغيرهما.

(٥٣) ابن كثير: البداية (١/٢١٠). وعن أخبار العرب العاربة والمستعربة، وتاريخ مكة إلى زمان الرسول ﷺ، انظر: البداية (٢/١٧١ ـ ٢٧١)، ولولا خشية الإطالة للخصصنا ذلك.

(٥٤) انظر: أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ط ٢، العربي للإعلان والنشر، دمشق، ١٩٧٣م، ص ٢٣٢، ومحمد محمد حسن شراب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، ص ٦١.

(٥٥) أخبار مكة (١/٢)، وانظر: السهيلي: الروض (١/٢٢٢ ـ ٢٣)، ابن حجر: الفتح (١٣/١٤٤)، البيهقي: الدلائل (٢/٤٤).

(٥٦) دلائل النبوة (٢/٤٥)، وانظر: ابن حجر: الفتح (١٣/١٤٤).

(٥٧) انظر في هذا: السيرة الشامية (١/١٧١)، وقال الشامي: «رواه ابن أبي حاتم وابن جرير والطبراني موقوفا، والأزرقي وأبوالشيخ في العظمة وابن عساكر عن ابن عباس. وفي مكان آخر (١/٢٤٢ ـ ٤٣) أورد عدة أخبار وأحاديث في حج آدم. وانظر ابن كثير: التفسير (١/٢٥٩).

(٥٨) أخبار مكة (١/٨).

(٥٩) انظر: السيرة الشامية (١/١٧٢) حيث ذكر أن ممن رواه ابن المنذر.

عن وهب بن منبه. وذكر السهيلي[٦٠] أن الذي بناها شيث بن آدم (عليه السلام).

المرة الرابعة: عمارة إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) التي ذكرناها، وجزم ابن كثير[٦١] بأن هذا كان أول بناء. قال: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل (عليه السلام)، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿..مكان البيت..﴾ فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم». وقال الشامي[٦٢] معلقا على كلام ابن كثير هذا: .. وفيه نظر لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة.

المرة الخامسة والسادسة: عمارة العماليق ثم جرهم، كما نقل الشامي[٦٣] من رواية ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن علي (رضي الله عنه). قال السهيلي[٦٤]: «وقد قيل إنه بني في أيام جرهم مرة أو مرتين؛ لأن السيل كان قد صدع حائطه، ولم يكن ذلك بنياناً على نحو ما قدمنا، إنما كان إصلاحاً لما وهى منه، وجداراً بني بينه وبين السيل، بناه عامر الجارود، وقد تقدم هذا الخبر».

المرة السابعة: عمارة قصي بن كلاب ـ جد النبي (عليه السلام) ـ قال الشامي[٦٥]: «نقله الزبير بن بكار في كتاب النسب، وجزم به الإمام أبوإسحاق الماوردي في الأحكام السلطانية[٦٦].

المرة الثامنة: عمارة قريش، حين كان للرسول (عليه السلام) خمسة وثلاثون عاماً، كما سيأتي ذكره هنا في المبحث الخاص بمشاركة الرسول (عليه السلام) في بناء الكعبة.

---

(٦٠) الروض الأنف (١/ ٢٢١) وعنده أنها المرة الأولى.
(٦١) البداية والنهاية (١/ ١٧٨).
(٦٢) سبل الهدى والرشاد (١/ ١٧٢).
(٦٣) المرجع نفسه (١/ ١٩٢).
(٦٤) الروض الأنف (١/ ٢٢٢).
(٦٥) سبل الهدى والرشاد (١/ ١٩٢).
(٦٦) ص ١٤٣، طبعة دار السعادة، ١٣٢٧ هـ.

المرة التاسعة: عمارة عبدالله بن الزبير، كما روى الشيخان[٦٧] وغيرهما. وسيأتي ذكره في الفصل الأول، المبحث رقم (٢٣) ـ الأسلوب الثامن من أساليب المشركين في الصد عن سبيل الله ـ آخر فقرة منه، ص ١٧٧.

المرة العاشرة: عمارة الحجاج بن يوسف بأمر عبدالملك بن مروان الأموي، كما روى الإمام مسلم[٦٨]. وعندما شكك عبدالملك في سماع ابن الزبير من خالته عائشة (رضي الله عنها) حديث الرسول ﷺ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ـ أو قال: بكفر ـ لهدمتها وجعلت لها غلقاً وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر»، أكد له الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ـ المعروف بالقباع وأخو عمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور ـ انه سمعه منها، فندم على نقضه وإعادته[٦٩].

وروي أن الرشيد العباسي عزم على نقضها وإعادتها كما بناها ابن الزبير، فقال له مالك بن أنس: أنشدك الله ياأمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيبته من قلوب الناس. فصرفه عن رأيه فيه[٧٠].

دلت الآيات القرآنية التي نزلت في شأن بناء الكعبة والأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري وغيره على أن أول من بنى الكعبة هو إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام). وقد كان مكان البيت ربوة عالية مشرفة على ما حولها، معروفة للملائكة، ولمن سبق من الأنبياء وبقعة مشرفة معظمة من قديم الزمان حتى جاء الخليل فأسس قواعده وبناه.

أما الروايات التي تقول ببناء الكعبة قبل هذا فأغلبها موقوفة على بعض الصحابة أو التابعين، ورواها أهل التاريخ والسير كالأزرقي والفاكهي وبعض

---

(٦٧) انظر الشامي: سبل الهدى والرشاد (١/ ١٩٢ ـ ١٩٦).

(٦٨) صحيحه (٢/ ٩٧١/ح ١٣٣٣/ ٤٠٢).

(٦٩) مسلم (٢/ ٩٧٢/ح ١٣٣٣/ ٤٠٣)، السهيلي (١/ ٢٢٢)؛ الشامي (١/ ١٩٦).

(٧٠) قال ابن كثير إن الذي أراد نقضها هو المهدي بن المنصور. انظر: البداية والنهاية (١/ ١٨٠) وقال السهيلي (١/ ٢٢٤) إن أباجعفر المنصور وابنه محمد المهدي زادا في إتقان المسجد وتحسين هيئته. وقال الدكتور البوطي: «هذا وفي شرح النووي على مسلم والفتح على البخاري، أن الذي هم بنقض الكعبة هو الرشيد، وذكر في عيون الأثر [١/ ٥٣] وإعلام الساجد أنه أبوجعفر المنصور، ومعلوم أن مالكاً ـ يرحمه الله ـ عاصر كلا من المنصور وهارون الرشيد، فالاحتمال قائم».

المفسرين والمحدثين الذين لا يلتزمون إخراج الروايات الصحيحة أو الحسنة. وقد مر بك قول ابن كثير: «ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل (عليه السلام)».

ويقول أبوشهبة[٧١] بعد ترجيحه كلام ابن كثير ـ: «ولا ينافي ما رجحناه وذهبنا إليه ما روي: انه ما من نبي إلا وقد حج البيت» مارواه أبويعلى في مسنده بسنده عن ابن عباس، قال: حج رسول الله ﷺ، فلما أتى وادي «عسفان» قال: «ياأبابكر، أي وادٍ هذا؟» قال: هذا وادي عسفان، قال: «لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكرات[٧٢] لهم حمر، خطمهم[٧٣] الليف، وأزرهم العباء[٧٤]، وأرديتهم النمار[٧٥] يحجون البيت العتيق»، وما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عباس، قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «ياأبابكر، أي وادٍ هذا؟» قال: وادي عسفان، قال: لقد مر به هود وصالح (عليهما السلام) على بكرات حمر، خطمها الليف، وأزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون يحجون البيت العتيق». إسناده حسن. لأن المقصود الحج إلى محله، وبقصته المعروفة، وإن لم يكن ثم بناء»[٧٦].

عمل ابن الزبير وغيره في عمارة الكعبة:

عندما قرر ابن الزبير تجديد الكعبة، باشر المسلمون نقضها حتى بلغوا بها الأرض، فأقاموا أعمدة من حولها وأرخوا عليها الستور، ثم باشروا في رفع بنائها، وزادوا فيها الأذرع الستة التي أنقصتها منه قريش، وزادوا في طولها إلى السماء عشرة أذرع، وجعلوا لها بابين من الشرق والغرب، أحدهما

---

(٧١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ١٢٦).
(٧٢) بكرات: جمع بكرة، وهي الناقة الفتية القوية.
(٧٣) خطم: جمع خطام، وهو الزمام الذي تشد به الناقة.
(٧٤) أزر: جمع إزار، وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط.
(٧٥) أردية: جمع رداء، وهو ما يوضع على الكتفين ويستر به النصف الأعلى. والنمار جمع نمرة، وهو الكساء المخطط.
(٧٦) ابن كثير: البداية والنهاية (١/ . .).

يدخل منه والآخر يخرج منه. وذلك استناداً إلى قول الرسول ﷺ: الذي رواه الشيخان: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم»، أوفي معنى هذا.

وذكر الأزرقي[٧٧] أن إبراهيم (عليه السلام) جعل طول بناء الكعبة في السماء تسعة أذرع وطولها في الأرض اثنين وثلاثين ذراعا وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعاً، وكانت بغير سقف. وحكى السهيلي[٧٨] أن طولها في السماء كان تسع أذرع من عهد إسماعيل، فلما بنتها قريش قبل الإسلام زادوا فيها تسع أذرع، فكانت ثمانية عشر ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يُصعد إليها إلا في دَرَج أو سلم، وقد ذكرنا أن أول من عمل لها غَلَقَا هو تُبَّع، ثم لما بناها ابن الزبير زاد فيها تسع أذرع، فكانت سبعاً وعشرين ذراعاً، وعلى ذلك هي الآن».

لم يكن للمسجد الحرام سور. وكانت تحيط به الدور من كل الجهات، وعندما رأى ابن الخطاب أن المسجد قد ضاق بالحجاج والزوار، اشترى الدور التي حوله من أهلها فوسعه وجعل له سوراً على قامة الرجل، وأناره[٧٩]. وعندما رأى عثمان (رضي الله عنه) أن المسجد أيضاً قد ضاق بالحجاج والمعتمرين، اشترى دوراً أخرى فوسع بها الحرم[٨٠]. وكذلك فعل ابن الزبير[٨١].

ولم يزل الخلفاء والأمراء من ذلك الزمان يتعهدون الحرم بالتوسعة[٨٢] إلى زماننا هذا الذي يشهد فيه أضخم توسعة على يد الحكومة السعودية.

---

(٧٧) تاريخ مكة (١/ ٦٤) وانظر: الزركشي: اعلام الساجد (ص٤٦)، وابن حجر: الفتح (١٣/ ١٤٩).
(٧٨) الروض الأنف (١/ ٢٢١).
(٧٩) الأزرقي (٢/ ٦٨ - ٦٩)؛ السهيلي: الروض (١/ ٢٢٤).
(٨٠) الأزرقي (٢/ ٦٩) السهيلي: الروض (١/ ٢٢٤).
(٨١) الأزرقي (٢/ ٦٩ - ٧٠).
(٨٢) انظر: الأزرقي (٢/ ٧١ وما بعدها)، فقد ذكر أولئك الذين وسعوا الحرم إلى زمانه.

مقام إبراهيم (عليه السلام)

المقام: هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم (عليه السلام) لما ارتفع البناء عن قامته كما ذكرنا، وقد تركت قدماه أثراً فيه، وظل هذا الأثر إلى أول الإسلام، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم. وفي هذا يقول أبوطالب:

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة * على قدميه حافيا غير ناعل[٨٣].

وقد روي أن المقام كان ملصقاً بحائط الكعبة، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأخره عن البيت قليلاً توسعة على الطائفين والمصلين عند المقام، ووافق الصحابة على عمل الفاروق[٨٤].

وقد سبق وأن وافق الله تعالى على قوله لرسول الله ﷺ: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى»، فأنزل الله تعالى ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى[٨٥][٨٦]﴾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إبراهيم (عليه السلام) بنى أيضاً المسجد الأقصى، وقيل إن يعقوب (عليه السلام) هو الذي أسسه. وقد كان بين البناءين أربعون عاماً، كما قال الرسول ﷺ[٨٧].

---

(٨٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١/ ١٧٨ - ١٧٩) والتفسير (١/ ٢٤٦).

(٨٤) أحمد: فضائل الصحابة (١/ ٣٢٤) من طريق عبدالرزاق، بإسناد صحيح إلى عطاء؛ انظر المصنف (٥/ ٤٨) مثله، وله شاهد صحيح عن مجاهد، أخرجه عبدالرزاق؛ الأزرقي أخبار مكة (٢/ ٣٣). قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٦٩/ ط. السلفية بالقاهرة: «... وأخرج البيهقي عن عائشة مثله. بسند قوي ولفظه أن المقام كان في زمن النبي ﷺ وفي زمن أبي بكر ملتصقاً بالبيت ثم أخره عمر... وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال: «كان المقام في سقع البيت في عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه. قال سفيان لا أدري أكان لاصقاً بالبيت أم لا». وانظر أحمد: الفضائل (١/ ٣٢٥) حاشية المحقق. وقال ابن كثير في التفسير (١/ ٢٤٦) بعد إيراد أثري عطاء ومجاهد عند عبدالرزاق وأثر عائشة عند البيهقي: «وهذ إسناد صحيح مع ما تقدم» وقال بعد ايراد أثر سفيان عند ابن أبي حاتم: «فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه».

(٨٥) البقرة: ١٢٥.

(٨٦) رواه البخاري (١/ ٥٠٤)، وأحمد: المسند (١/ ٢٣) وفي فضائل الصحابة (١/ ٣١٥ - ١٦/ح ٤٣٥) و(١/ ٣٤٢/ح ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥) بإسناد صحيح.

(٨٧) البخاري/ الفتح (١٣/ ٢١٨ - ٢١٩/ح ٣٤٢٥)؛ مسلم (١/ ٣٧٠/ح ٥٢٠).

أما الحديث الذي رواه النسائي[٨٨]، وفيه أن سليمان بن داود (عليهما السلام) هو الذي بنى المسجد الأقصى، فالمقصود بالبناء هنا هو التجديد كما ذكر السيوطي[٨٩] وابن القيم[٩٠] وابن حجر[٩١] واستعمال البناء بمعنى التجديد وارد في اللغة العربية، كما قال الدكتور أبوشهبة[٩٢].

حالة العالم حين بعث محمد ﷺ:

لقد عاشت البشرية في ظلام من الجاهلية في القرنين السادس والسابع الميلاديين، إذ سادت الوثنيات والخرافات والعصبيات والقبليات والطبقيات والمفاسد الاجتماعية والسياسية. وحرفت معظم الأفكار الإصلاحية السليمة، سواء التي جاء بها أنبياء الله المرسلون أو الحكماء الذين استقامت فطرهم على الحق. وقد عبر الرسول ﷺ عن هذه الحقيقة في قوله: «إن الله نظر إلى سكان العالم فمقتهم، عربهم وعجمهم جميعا إلا بقايا من أهل الكتاب». [٩٣]

وفي الصفحات القليلة التالية، نذكر باختصار، ما كانت عليه البشرية في تلك الفترة، لبيان ضرورة رسالة النبي ﷺ وما تضمنته من أسس ومعايير، كانت ومازالت وستظل، عوامل رئيسة في بناء الحضارة الإنسانية.

---

(٨٨) السنن (٢/ ٣٤) بإسناد صحيح كما ذكر الشارح - السيوطي (٢/ ٣٣).
(٨٩) المصدر والمكان نفسيهما.
(٩٠) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٩ - ٥٠).
(٩١) الفتح (١٣/ ١٥٢) وصحح إسناد النسائي.
(٩٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ١٣٤).
(٩٣) أخرجه مسلم ضمن حديث طويل. والمراد بأهل الكتاب هنا: الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تحريف.